الفصل الأول

أسبانيا، أو تاريخ قلق

يبدأ هذا الفصل بالحديث عن تاريخ الدولة الأوربية بما فيه من وضوح قاطع، ذلك التاريخ الذى تحدد كل نقطة فى ماضيه ومستقبله، ثم يضيف المؤلف إلى هذا ظاهرة أخرى تفرد أسبانيا - رغم عدم غيابها قط عن التبادل التجارى مع جاراتها الأوربيات - عن غيرها، فالفرق بين أسبانيا وبين أى دولة أوربية يختلف فى النوع تماما عن الفرق بين أى دولتين أوربيتين أخريين، فضلا عن وصول أسبانيا - برفقة البرتغال - إلى القرن العشرين وهى تعانى من الضعف السياسى والاقتصادى والعلمى بينما تحمل فى إهابها تفوقا مذهلا فى الفن والأدب بجانب الانتصارات العسكرية واكتشاف عالم جديد (فى أمريكا).

إن الأسبانى يحلم بالمجد ويمضى الوقت عاطلا فى انتظار ذلك المجد فإن لم يأت فهذا حكم القدر، وإن أتى فهو لا يقبل إلا الحد الأقصى بينما لا يفكر فى تحقيقه بل يحلم. فمنذ القرن السابع عشر شعر الأسبانى المتميز بخواء إنجازاته الجمعية، وتركزت الحياة الأسبانية فى محاولة تجنب ضربات القدر. هناك ظاهرة أخرى غريبة، فبرغم أن الأسبانى يعيش على ماضيه المجيد فيما تفوق فيه إلا أنه لا ينظر بتقدير واع إلى إنجازات ذلك الماضى (يشارك أسبانيا فى ذلك الآن دول أمريكا اللاتينية التى لا تحافظ على منجزات العمارة والفن الأسبانى فيها محافظة الولايات المتحدة على الآثار الأسبانية فى لويزيانا وكاليفورنيا) فالمصور «الجريكو»[1] مثلا لم يخرج إلى دائرة النور إلا فى بدايات القرن

---

(١) الجريكو (١٤٧٧ - ١٥٧٦) مصور أسبانى عظيم عاش فى الفترة من ١٥٤٨ إلى ١٦٢٥. ولم يلتفت فى أسبانيا إلى أهميته إلا فى مطالع هذا القرن كما يشير المؤلف. وهو تلميذ للمصور الإيطالى «التيثيانو» مؤسس مدرسة فينيسيا.

العشرين، والشاعر «جونجورا»[1] ظل فترة طويلة ينظر إليه كرجل يهذى، ولم يحفل بهما أحد إلا فى ظل حملات عاطفية أوروبية لتقديرهما، وأمثال ذلك كثير. أليس عدم الاحتفال بمثل هذا الدليل القائم على أن الأمر عاطفة تخلو من العقلانية والتفكير.

إن ما سبق ليدفع إلى التأكد من أن التاريخ الأسبانى لا زال فى موضع يستحق المناقشة من جديد. إن التاريخ الأسبانى بين الاحتضار والحياة لغز يحتاج إلى الفحص من جديد[2]. إن الروح اليهودية اليائسة والمنتصرة تصب فجأة فى «لاثلستينا الخالدة» (١٤٩٩م)، وفى عام ١٦٠٥م فى ضوء بيئة تتصارع فيها النهضة مع نقيضها يظهر «دون كيخوته» لتجسيم خالد للإنسان المستحيل، يتحقق جماليا... إلى أن نصل إلى عام ١٩٠٠ لنسمع لورد «سالسبورى» يصف أسبانيا بأنها دولة متحضرة، وفى ظل هذا الاحتضار تظهر نخبة من الرجال فى الفن والفلسفة والعلم أسماؤها ليست فى حاجة إلى صفات (انطونيو ماتشادو - لوركا - بيكاسو - البنيث أى كاخال - منندث بيدال - أورتيجا أى جاسيت... إلخ)[3]، أليس هذا غريبًا؟ إن كل الأحداث ترشح أسبانيا كبلد للفلاحين لا يثير فيها الاهتمام إلا جمال مظاهر الطبيعة، وفجأة تنفر وتصنع المستحيل. إن فحص هذا التاريخ يتطلب النسيان - لو قليلا - لأفكار التقدم، والانهيار المادى، والقدرة السياسية والكفاءة التكنولوجية.

منذ القرن السابع عشر، يبدو للعيان عدم التكامل فى الإرادة الجمعية بعد انهيار إمبراطورية أسبانيا التى كانت تقوم على الإيمان الكاثوليكى من وجهة نظر الأسبان لا من وجهة نظر كنيسة روما برغم الاتفاق الظاهرى بين الجهتين. وقد بدأ عدم التكامل هذا بين اتجاهين متناقضين أحدها يدعو لعقلانية النهضة والآخر يصمم على الاتجاه المدمر ضد «الإسلامية» بينما عاش كثير من الأسبان فى ظل جمود العادات والمعتقدات دون الانشغال بمعرفة شىء حتى أننا نجد - فى بعض الجهات: أن الناس استمرت حتى القرن العشرين فى استخدام المحراث الرومانى ودرس الحبوب بالثيران.

---

(١) جونجورا: (١٥٦١ - ١٦٢٧) شاعر غنائى قرطبى مسقط الرأس وله أسلوب خاص يسمى الكولتيرانيزم حاكاه كثير من الشعراء وهو أسلوب يمزج بين العاطفة والطبيعة والسخرية.

(٢) لعل سانتسن البورنوث استعار من هذه العبارة اسم كتابه الذى يعد ردا على كتاب أميريكو كاسترو حيث أن اسم الكتاب المذكور هو «أسبانيا: لغز تاريخى».

(٣) انطونيو ما تشادو (١٨٧٥ - ١٩٣٩) شاعر أسبانى عظيم من عمد حركة ضخمة فى الأدب الأسبانى قادها مجموعة من الأدباء أطلق عليهم جيل ٩٨. وقد ساهم ماتشادو فى تجديد الشعر الأسبانى كما ساهم فى ازدهار المسرح مشاركة مع أخيه مانويل ما تشادو.

وعلى أى الاحوال ينبغى التنبيه بأن التاريخ لم يعد يفهم بمناهج مبتذلة: الحضارات تولد وتتقدم وتذبل! أو أن التاريخ هو نتيجة لإرادة جمعية - أو إرادة تحولت لجمعية تطرح أهدافًا سامية! كذلك ينبغى التحذير مما يقع فيه المؤرخون الذين يأخذون حاضر الأمة القوية الغنية بينما يسلبون كل شىء من تاريخ الأمة الضعيفة الفقيرة.

إذن لندع جانبًا تلك الأفكار عن «العظمة» و«الانهيار» إن تاريخ أسبانيا فى حزمة واحدة، تراث قديم سوداوى يعود للظهور عند أغلبية مؤرخيها، فى محاولة دائمة لجعل أسبانيا تهرب من نفسها[1].

الحياة انغماسا

إن نظرة إلى أوائل القرن الخامس عشر تطلعنا على محاولات - لعلها صادرة من مسيحيين جدد [2] فى معظمها - لتحديد شخصية الإنسان الأسبانى، ونمط الحياة الأسبانى. إن حركة الأسبان نحو التوسع تقوم على إيمان كاثوليكى خاص. يتم الفتح لنشر هذا الإيمان لا لكسب الأرض، وبالتالى فانغماس الأسبان الروحى أبعدهم عن الانشغال بالماديات، وهذا الانغماس جعل من البلاد معبرا لنشر الإيمان الكاثوليكى والمحافظة عليه. إن الهوة السحيقة بين أسبانيا وجاراتها الأوربيات تتلخص فى أن الاعتزاز بالنبالة فى أوروبا مضى مندمجًا فى الأعمال التجارية بينما أسبانيا لم تطق المزج بين التجارة، وبين الإيمان الذى كان مصدرًا للنبالة. ويزداد تحديد أسبانيا أكثر بأن أهم قيمتين لديها هما: أولا: خصب الأرض وعطائها الذى يجعل من قشتالة (أسبانيا ذلك الوقت) دولة غنية. ثانيًا: حمية المؤسسات العسكرية. وهاتان القيمتان تعكسان الكسل والفخار بالنفس[3].

---

(١) إن هذه المقولة تنطبق على التاريخ العربى، الذى يهرب من نفسه، فنحن الآن نسمى الأشياء بغير أسمائها، لقد أطلق على حرب ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ لفظ «نكسة» ولم تستعمل كلمة هزيمة، هذا مثال صارخ وقريب للهرب من النفس تدعمه عشرات الأمثلة. إن ظاهرة الهروب من النفس عند كتابة التاريخ ظاهرة تاريخية لعلها تفتح مدخلا للتأريخ للعالم العربى.

(٢) المسيحيون الجدد هم من ارتد عن دينة يهوديا كان أو مسلما ليدخل فى المسيحية، وقد عانى هؤلاء الاضطهاد من المسيحيين القدماء بل وظلوا تحت دائرة الشك مما فرض عليهم أسلوبا فى الحياة دفع بعضهم إلى شراء الألقاب وادعاء النبالة بمفهومها آنذاك وهو: الانتماء القديم للمسيحية (راجع السطور القادمة).

(٣) هذا ملخص لرأى فرناندو دى لاتورى (وقد عاش الرجل خلال القرن الخامس عشر)، ورأيه هذا تمثل فى رسالة منه إلى انريكى الرابع دى قشتالة فى بداية تملكه عام ١٤٥٥. راجع:
Cancionero y obras en prosa de F. de La Torre, Publicado por A. Pazy Melia, Dresde, 1907.

ويقدم القرن الخامس عشر هذا التحديد فى صورة إدراك أسبانى للذات الأسبانية أمام الآخرين، كما يبدو بمعاصرة الأحداث عند الأسبان فى ذلك القرن. وينتج عن هذا الإدراك ظهور جيش أسبانى دائم يتطور على يد فرناندو الكاثوليكى ليعين هذا الأخير على التوسع فى أوروبا، بل لعل ظهور هذا الجيش فى البداية كان إرهاصة بظهور الملكيين الكاثوليكيين[١] . ثمة أمر آخر - سيقدم له تفسير فيما بعد وهو الكثرة الغفيرة من الموظفين والحرس فى البلاط الملكى وعند النبلاء، فهؤلاء يرغبون فى البروز اجتماعيًا بهذه الهالة من الرجال حولهم اتساقا مع الروح الأسبانى، إن الروح الأسبانى عملة ذات وجهين، أحدهما أرض مؤلهة والآخر سماء مؤنسنة ولعل هذه المحبة للأرض والحديث عن دورها الخلاق وتميزها الخارق هو امتداد لتراث عربى يتحدث عن الأرض فى حب لا ينبع عن الرغبة فى المكسب من ورائها[٢] . إن الكتاب الأسبان سيمضون يمجدون أرض أسبانيا منذ الفونسو العالم مثلهم مثل مسلمى أسبانيا وها هو لوبى دى فيجا[٣] .

إنها أرض خصبة لا يصيبها النصب أبدا . . .

فى إنتاج الأرزاق ذهبا وفضة .

فكيف تبدو لك تلك الأرض يا سيدتى؟

ألا يبهجكم مرآها السعيد :

نباتاتها، خصوبة وجمال . . . ،

ثمار وأشجار فى ثراء؟

ألا يعجبكم مرأى كل ذلك السمو؟[٤]

ومرة أخرى يقول نفس الشاعر على لسان بحار :

---

(١) «فرناندو» و«ايزابيللا» اللذان تم على أيديهما اسقاط آخر الممالك الإسلامية فى الأندلس وهى مملكة غرناطة وفى عصرهما تم توحيد الممالك الأسبانية .

(٢) لاحظنا ذلك تحديدا أثناء دراستنا لشعر الطبيعة فى الأندلس : راجع هذه الدراسة فى رسالة مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة .

(٣) لوبى دى فيجا (١٥٦٢-١٦٣٥) كاتب مسرحى عظيم اشتهر بالإسراف فى الكتابة حتى تجاوز الرقم ألف من عدد مسرحياته .

(٤) المثل فى كوميديا Roma Abrasada للوبى دى فيجا .

أعرف أن تلك الأرض تنتظرنى
الأرض التى أهوى تقبيلها
إنها الأم . . . تلك الأرض . . فى النهاية
وكأم فإنها تقيم الأود [١] .

إن الحياة الريفية كانت موضوعًا أساسيًا فى أهميته عند لوبى دى فيجا فى أشعاره خاصة كما كانت كذلك فى أدب القرنين ١٦ ، ١٧ عامة . إن الثناء على الأرض لم يكن فحسب صدى فيرجيليا أو بسبب النهضة (التى مجدت الطبيعة) أو بسبب العصر الذهبى إنما أيضًا - وبصفة أساسية - بسبب أن الفلاح كان يحس كزارع لأرض سحرية خالدة موافقة للأهواء عطاءة لفاكهة ونبيذ لذة للشاربين . ونفس الشىء فى النظر إلى السماء كمنعمة على الزارع الذى يزرع إلهيات خفية . إن الأسبانى المسيحى فى القرون الوسطى ازدرى العمل الميكانيكى والمقنن والخالى من الأسرار ، والذى لا يقف وراءه خلود تهبه الأرض أو السماء . إن الأرض والسماء قد حلتا تناقضهما فى وحدة الإيمان الذى يقف وراء الفلاح والحياة الريفية فى الواقع وفى الأدب ، إن أسبانيا قد كانت إيمانا : عقيدة يغذيها الموت والحياة ، والأرض والسماء . إن تقديس لوبى دى فيجا للأرض سيتكرر عند كالديرون دى لاباركا [٢] وفى مسرح القرن السابع عشر بل وفى المثل الشعبى «بلاط أو مزرعة» . إن فرناندو دى لاتورى (أول أسبانى حاول أن يفكر فى وطنه) يقدس الأرض كصفة لما هو

---

(١) المثل من كوميديا El Molino للوبى دى فيجا .
تشبيه الأرض بل وأشجارها بالأم نجده عند الشاعر ابن خفاجة ، ولكنها الأم التى تأكل أبناءها تارة أو الأم الرؤوم بأبنائها اليتامى ، فموقفه عكس موقف لوبى دى فيجا (راجع شعر الطبيعة فى الأندلس - فصل ابن خفاجة) فابن خفاجة فوق أرض تهتز ولوبى فوق أرض تقيم الأود . ابن خفاجة يقول :

واعلم أن المرء للأرض أكلة فيا عجبا أن تأكل ابنا لها أم

(الديوان ص ٢٨٧)

ويقول فى شجرة أندلسية :

كان أمـــا بها رؤومـــا تحتضن من شربها يتامى

(الديوان ص ٦٩)

(٢) يقول كالديرون دى لاباركا فى مسرحيته El alcalde de Zalamea

ما كان يفلح قبطانا ما لم يكن فلاحا

وكالديرون كاتب مسرحى (١٦٠٠-١٦٨٠) نقل المسرح من واقعية لوبى دى فيجا إلى مسرح الباروكو الذى يتأرجح بين ثقل المفكر والصور فى زخرفية أبى تمام .

أسبانى، ويعود أونامونو لتحديد صفة أسبانيا قائلا: «عند قليل من شعوب الأرض تقدست الأرض كما حدث للشعوب التى صهرتها أسبانيا، إن أسبانيا أرض تحت سماء، إنها أرض مليئة بالسماء[1]، أرض لها كينونة الجسم فصارت روحا، وليست هذه «غنائية» ولكنها دعامة الحياة أكثر واقعية وعمقا مما هو مكتوب فى الأخبار، لأن وراء هذا المظهر الغنائى - طبقا لما أقمت من دليل - تتوتر عشرة قرون من الإنسانية الحنونة والتواقة. وإن الخط لم يتغير - فرنانودى لاتورى - لوبى دى لافيجا - كالديرون دى لاباركا... أونامونو[2] - وهذا يجعل المؤرخ ينظر فى تلك الصيغة الخاصة للحياة التى كانت مشكلتها الأولى والمستمرة هى القلق والمرارة تجاه وجودها نفسه. ذلك الوجود الذى يبرز عدم الكينونة فى وضوح والعيش فى يقظة الشك. سيقال إن شعوبا أخرى لم تخل من نظرفى وجودها فى ظل ظروف قاسية، والرد أن هذا النظر قريب من مجرى الوجود المحدد الواضح المجرى بينما يبدو النهر الأسبانى لا يكف عن السؤال: عما إذا كانت مياهه تتدفق حيث يجب أن تتدفق.

ويمضى المؤلف - بعد وقوعه على أول صيغة للحياة الأسبانية وهى القلق المستمر المشوب بيقظة الشك فيما يتعلق بمشكلة الوجود، ذلك القلق الذى يشد الأسبانى إلى الأرض من السماء وإلى السماء من الأرض - محددا أول مهام المؤرخ الأسبانى أمام حياة قلقة تجعل من مهمته أن يودع القلق مثله مثل الشعور الوطنى ويغمس نفسه فى التاريخ ببؤسه ونعيمه مفكرًا فى ارتباطهما. فمنذ «قصيدة السيد» حتى موسيقى فايا - لو أن أسبانيا

---

(١) فى شعر ابن خفاجة نرى الأرض تحت السماء معدنين نفيسين فى يوم هو عمره:

ترى الأرض فيه وقد فضضت ... ووجه السماء وقد ذهبا

وفى البيت التالى تمتلئ الأرض بالسماء بل تفرزها:

وقد أطلع الروض من أيكه ... سماء ومن زهره كوكبا

(الديوان تحقيق: السيد غازى) ص ٢٩٨

كما تمتلى السماء بالأرض والأرض بالسماء:

والأرض فضية الآفاق تحسبها ... شمطاء حاسرة قد مسها الكبر

فكل نجد ووهد قد أطل بـه ... روض تجلى بنور ما له ثمـر

وللأقاحى ثغور فيه باسمة ... لها من الثلج ريق بارد خصر

كأن فى الجو أشجار منورة ... هب النسيم عليها فهى تنتثر

(الديوان ص ٣٧٢)

ففكرة الأرض المركزية فى مفهوم كلمة «أسبانيا» ذات جذور أندلسية.

(٢) يشير المؤلف هنا إلى استمرار نفس الصيغة المشار إليها منذ القرون الوسطى حتى القرن العشرين.

دخلت فى دائرة الحضارات العقلانية والرخاء المادى والسلمى لما وجدت بالفعل لها حضارة عالمية.

إذن لنترك ملاحم المؤرخين السوداء أو البيضاء - لأنها لا تعنينا - ولنتأمل تاريخ أسبانيا الذى كتبه أورتيجا اى جاسيت عام ١٩٢٢م: إن قضيته هى أن أسبانيا لا تعانى فحسب مرضا مزمنًا إنما وجودها نفسه - وبشكل جذرى - مرضى. وجذر هذه الآلام يرجع للقوط الغربيين من القرن الخامس حتى وصول العرب ٧١١م. إن هؤلاء القوط سلالة ضعيفة بين السلالات الجرمانية فهم عانوا انحطاطا كما خلوا من القلة المختارة من الرجال الذين بدونهم لا تقوم ثقافة جديرة بالتقدير. ومنذ ذلك الحين أصبحت الثقافة نابعة من جماهير غير منظمة معادية للقلة المختارة لمجرد أنها «مختارة» فلم يحدث سوى الهدم والتحطيم والتدمير. دخل العرب فبدأت حرب الاسترداد ثمانية قرون - ومن المدهش تسمية حرب تستمر ثمانية قرون بهذا الاسم! - وهذه الحرب نمط لاستمرار سلوك هذه الجماهير المعادى للثقافة الرفيعة، ولو توقفت عن عدائها لتغير كل شىء ولما كان المرض. إن «أورتيجا إى جاسيت» بمكانته الرفيعة التى لا نظير لها فى العالم الأسبانى يكتب بهذه العاطفية، وينطلق فى إصدار الأحكام المطلقة لهو المثل الصارخ للحياة انغماسا. ولو رجعنا لكل من علق على التاريخ الأسبانى أو كتب فيه منذ بعيد لوجدنا نفس الانعماس، فكما أن «أورتيجا» ينسب كل شىء لجماهير متمردة غير منظمة يترك كيفيدو[1] أسبانيا بلا جماهير فى تعليق له على طرد الموريسكوس.

إذا مضينا مع هؤلاء نعدد كل الأسباب وراء سوء الحظ والكوارث فى أسبانيا سنكلف أنفسنا بمهمة فادحة وخالية من أى مغزى يرتبط بهدفنا التاريخى - إننا - إذن - يمكن أن نتحدث عن المناخ والكسل ورفض العقلانية، وغياب النهضة، وأيضًا عن العرب كما يفعل كثير من المؤرخين الذين ذهب بعضهم إلى الحديث عن «نفسية إيبيرية» ذات مزاج فردى ومتناقض تشكلت فيما قبل التاريخ، بينما الحقيقة أن الأسبانى تشكل داخل تاريخه المعيش نفسه وليس بفروض عنصرية.

مما سبق يبدو هدفنا متواضعا وأقل دوجماطيقية. إنه التطلع إلى وصف ما حدث

---

(١) كيفيدو (١٥٨٠-١٦٤٥) شاعر أسبانى عظيم وكاتب ساخر وسياسى جنت عليه السياسة فتعرض للنفى والسجن مرات.

للأسبانى، وأى أسس للحياة قد أتاحتها الظروف له، تلك الظروف التى رتب القدر بداخلها مكان الأسبانى، وبذا يمكن تأمل التاريخ كتحقق لقيم وليس تنفيضا لسجادة. إن الأسبانى كان ضد أى سلطة للدولة منقادا لكل ما هو تراث وبدون هذا لصارت شبه الجزيرة الإيبيرية امتدادًا لأفريقيا. إن الأسبانى تشبث بمعتقداته الأسطورية الدينية والفنية كما لم يفعل شعب أوربى آخر. إن الأسبانى - أيضًا - تحوصل داخل شخصه، ومن شخصه استخرج الجسارة والإيمان لقيم إمبراطوريته الغريبة والشاسعة والاستعمارية والتى استمرت من ١٥٠٠ إلى ١٨٢٤[١]. كذلك حافظ هذا الأسبانى على لغته، لغة القرن الثالث عشر وصهر بها إبداعاته الفنية ذات القيمة العالية، كما أنه مضى يتوحد ليس عبر الأسباب والمعرفة والقوانين ولكن خلال الأساطير والمعتقدات.

(١) لعل فكرة التحوصل كانت من صفات المجموعات البشرية التى تعايشت فى أسبانيا مع اختلاف مهام التحوصل طبقا للمراحل التاريخية. إن الأسبانى يتحوصل بحثًا عن نفسه التى تتشكل بينما المسلم فى نفس المرحلة يبحث عن نفسه الضائعة فى صنفين أحدهما يسكر والآخر يتأمل والنتيجة واحدة. ونلحظ ذلك فى شعر ابن خفاجة:

غيرى من يعتد من أنسه ما نال من ساق ومن كأسه
وشأن مثلى أن يرى خاليا بنفسه يبحث عن نفسه

(الديوان ص ٦٢)

إن ما يعبر عنه ابن خفاجة هو ما يطلق عليه مرارا أميريكو كاسترو الانغلاق داخل الذات فى تأمل الذات.